نظـرة عامـة

فيما يقرب من مائة وثلاثين عامًا قامت فى مصر خمس ثورات. ثورة عرابى، ثورة تسعة عشر، ثورة يوليو، ثورة ١٥ مايو إذا اعتبرناها ثورة، ثم ثورتا ٢٥ يناير، و٣٠ يونيو، أى ثورة كل عشرين عامًا تقريبًا.

الأمم التى نراها أمام أعيننا الآن لم تتقدم نتيجة ثورات متلاحقة بمثل هذا الفاصل الزمنى المتناهى الصغر، فأقصاها ثورة واحدة فى عمرها كله، إن حدثت.

لدينا إسرائيل التى تحقق أعلى معدل تقدم فى العالم، لم يحدث أن قامت بها ثورة أى ثورة، ذلك لأنها فى حالة ثورة دائمة، أو أمكنها تحويل الثورة من استثناء إلى قاعدة، ليس هذا هو حال اسرائيل فقط، بل حال كل الدول المتقدمة، فكلها ركبت فى أحشائها جهازًا عمله الوحيد تصحيح المسار تلقائيًا.

قد يرى البعض أن ما حدث صحوة.... أوافقهم

دليل حيوية..... لا أعترض

obeikan.com

ولكن إذا ما امتلكنا القدْر اللازم من الإرادة ـ لنكن أكثر صدقًا مع أنفسنا ـ أمكننا إدراك أن هذا ـ أيضًا ـ ربما يكون عَرَضًا من أعراض الإعاقة لشخص أعرج عاجز عن السير بخطوات منتظمة، ومستمرة، ومتزنة، وبنفس السرعة، وحال ادراكه لمدى تخلفه عن القافلة، وأنه هالك لا محالة، لا يجد أمامه من سبيل للحاق بها إلا بقبول مخاطرة القفز، فيندفع كزمبرك فقد كابحه.

وسرعان ما يدرك أن قفزة أو قفزتين أو ثلاث مهما تكن قوة أى منها لا يمكن أن تعوض المسافة المفقودة، وهنا يجن جنونه، وتزداد خبطاته الهستيرية، التى قد تفضى إلى إلحاقه الضرربنفسه، وقد يصيبه اليأس فيجد فى العودة للنوم مرة أخرى حلا لكل مشاكله، إلى أن تأتى عوامل جديدة، وأجيال جديدة تقارن بين حالها وحال العالم من حولها فتعاود حشد نفسها من جديد لأجل قفزة تالية، وهكذا دورات تلى بعضها بعضًا وغالبًا ما تكون المحصلة النهائية سالبة للأسف.

بكل المقاييس، ثورتنا قفزة خطيرة فى اتجاه المجهول، وما يزيد من خطورتها أنها تحدث فى عالم اليوم، وهو جد مختلف، فاجر، وحشى يجرى بجنون، اقتحم بكميراته الجسم البشرى، دخل جزيئ المادة، نجح فى الإمساك بها متلبسة بممارسة الحياة، هتك سر الجينات الوراثية، حصل على قائمة بما تحمله من أسرار، أعاد ترتيبها على هواه، يصدر " أوردر " للسحب فتسقط أمطارها هنا لا هناك " يسرق الكحل من العين ".

لحظة انفلاته من حدود الجاذبية الأرضية أدار رأسه للخلف لا لشيئ إلا ليخرج لسانه للأرض التى سجنته ملايين السنين.

عالم فى صراعه مع الآخر لم يعد يعتبر المزايا النسبية التى يمتلكها خصمه حواجز أبدية، أو معطيات صخرية لا تقهر الا بالتغلب عليها، لا.... أصبح الآن يملك من الأدوات ما يمكنه من إذابتها، أو صهرها على نار هادئة، تأخذ سنة اثنين عشرة لا يهم، وهى ما أطلقو عليها الآن اسم حروب الجيل الرابع بينما اطلقت عليها فى السابق وقبل أن أسمع عنها اسم (bloodless war) حروب بلا دماء.

فمثلا من المعطيات أن إسرائيل تعدادها نحو سبعة ملايين ومصر خمسة وثمانين مليونًا ومتجهة إلى التسعين، هذا فارق كبير له أثر فى الصراع القائم بين الدولتين، فحسب التوزيع الطبيعى لعدد الموهوبين يستحيل أن يتساوى عدد الأفذاذ فى الرياضيات أو فى الرسم أو فى لعب كرة القدم على سبيل المثال، من بين التسعين مليون يساوى عددهم من بين السبعة ملايين، وغيره، والنتيجة المتوقعة بفرض تساوى العوامل الأخرى هى تفوق التسعين مليونًا على السبعين مليونًا.

باستخدام الأساليب التقليدية فى الصراع يكون على إسرائيل تجهيز جيش من مليونى جندى، وامتلاك سلاح كذا وكذا، وتجهيز نفسها لتحمل خسائر كذا وكذا من القتلى والجرحى كما حدث فى حرب ٧٣ والحروب السابقة عليها... إلخ.

لكن فى حالة اتباع الطرق الحديثة القائمة على تغيير المعطيات أو الخصائص، يمكنها تحقيق نتائج خرافية عن طريق تكسيح التسعين مليون مصرى، بمحاولة تخفيض إنتاجيتهم، بتسهيل تدفق المخدرات إلى البلد المستهدف، وإذكاء روح التطرف الدينى والاباحى، والعبث بالتعليم، والزج بثقافات مضللة، وتحليلات سياسية خاطئة، تخفيض انتاجية الأصول نتيجة للتدمير المتعمد للانسان، فيتحول التسعون مليون إلى مليونين، وربما أقل، وبالتالى يتحقق لها الانتصار دون خسارة تذكر فى الأرواح، وبأقل تكلفة، والأكثر أن التسعين مليونًا المفترض أنهم ميزة نسبية يتحولون إلى ثقل إضافى يعيق حركة الأمة المستهدفة ويجعلها تسير بعجلة تناقصية بشكل أسرع.

لكن لابد من ملاحظة أنه لا يقوى على شن هذا النوع من الحروب إلا الدول التى تمتلك الأدوات (tools) اللازمة، المال الوفير، الورش الفكرية، الحاسبات الالكترونية، الأنظمة الرقمية، الكبلات الزجاجية، النت، الفضائيات،المؤسسات التمويلية العملاقة، بنوك المعلومات، أجهزة مخابرات على قدر غير عادى من الانحطاط، بالإضافة للقدرة على الصبر، والكفاءة فى توظيف الوقت، وغيره وغيره من عناصر القوة الناعمة الشريرة.

* * *

لا أقلل من أهمية ثورة ٢٥ يناير، أو أبخسها حقها فى التَّمَيز، فقد بلغت الأمور درجة من السوء جعلتها الخيار الأوحد للخلاص.

ولكن كسلوك ثورى يحمل درجة جيد جداً، أو حتى مقبول، علينا أن نجذب إلى منطقة الضوء كل أوجه الثورة، وكل زواياها، ما نحمده فيها وما نجحده، فهذا عمل من أعمال الوعى، والثورة وعى، وأى ثورة لا تملك ما يلزم من وعى تكون وبالا على أهلها.

وعمومًا، ليس هناك من يقدر نتائج الأعمال مثل مدقق الحسابات، والسياسة حسابات، وصراع قوى، قوى فعلية، لها وجود مادى يحسب حسابه الآخرون، وليست مجرد أفكار، أو عبارات حماسية، أو أبيات شعر تخرج صارخة من بين شفاه الشعراء، كما قد يظن أصحاب النوايا الحسنة، والأمزجة الرومانسية، أو الحالمون، والباحثون عن أدوار، يضاف إلى هؤلاء وأولئك كدابو الزفة، الذين يملأون الساحات صخبًا وتهليلا، حيث تتركز مواهبهم فى السير فى الزفة، ودق الدفوف، وربما لا يعرفون من يكون العريس أو العروس، ولا أين تتجه الزفة، كل ما يعنيهم هو استمرارها، ومن ثم يمدونها بما يضمن لهم ذلك، ولا غرو، فهى التى تعطى لحياتهم الفارغة قيمة، ولعقولهم الخاوية تواجدًا، ولأرواحهم الملول السئمة المزيد من التسلية وربما العلاج.

لن يفيد الثورة إذًا أن يضاف إلى مدّاحيها مدّاح جديد، أو عازفيها عازف جديد، أو راقصيها راقص آخر، ولكن يفيدها جدًا أن يضاف ثائر

جديد، يضيف رؤية أخرى، تحميها، تثريها، تضبط إيقاعها، تصحح اتجاهها، تزيد من نجاحها، تؤدى الى استمرارها حتى تصل لهدفها.

* * *

تكرار الثورات أو أشباه الثورات وتواترها عندنا على غير الإيقاع الطبيعى، ظاهرة يؤسفنى أنها لم تحظ بما تستحق من اهتمام، وبالتالى لم يتوفر لها ما تستحق من دراسات، ولم تحاط بما ينبغى لها من محاذير.

لا شك أن كل ثورة منها، تم تناولها - على حدة - بدراسات قام بها العديد من الباحثين، ولكن معظمها - إن لم يكن كلها - خرج من رحم شيفونية قومية، اغتالت حيادها، وسحقت موضوعيتها، لأنها - أى الشيفونية القومية - غالبًا ما تكون هى الدافع الفعلى للدراسة.

وهذا ما يدفع الباحثين (الخصوصيين) إلى الإشادة بهذه الثورات، وتمجيد من فجروها، وتنزيههم عن الخطأ، وعندما يكون من المستحيل إخفاء أو تجميل أو التخفيف من آثار عثراتهم، أو أخطائهم، يبررون ذلك بالخيانة التى يقترفها البعض حيالهم، أو التآمر الذى قد يحاك ضدهم، مطمئنين إلى أن هذا كفيل بإخراج بطلهم من ورطته، أو سقطته، أو فشله، مما يضمن بقائه على القمة التى وضعوه فوقها عنوة.

فى الغالب لا يجدون من يعارضهم، ويلفت نظرهم إلى أننا لا نعيش فى عالم مثالى، الخيانة فيه ليست مفترضة، والمؤامرة ليست من أدواته المتعارف عليها.

فهم متحمسون يخاطبون متحمسين، أو منافقون يخاطبون قومًا يجدون فى النفاق راحة لنفوس أضناها الفشل الدائم، وتريد شيئًا من الترويح عن النفس.

جمهور يسعده سماع ما يعرفه ولكن بصياغات جديدة أو متجددة، مرة نثرًا، أخرى شعرًا، وكل يعرض حسب ملكاته، والبعض حسب مراكزهم فى مجال السياسة أو الثقافة أو الصحافة، وهنا يتساوى مركزا الكاتب والقارئ، ويصبح الفرق الوحيد بينهما هو قدرة الأول على التعبير، لا التفكير، فالكاتب والقارئ يكونان ثنائيًا هدفه الوحيد تأليه من لا حق له فى الألوهية.

* * *

البطل أحمد عرابى لم يهزمه إلا الخيانة، ويقدمون لك سبع وقائع يسردونها بثقة على النحو التالى:

- خيانة الخديوى توفيق < تحالف مع العدو ضد عرابى.
- خيانة ديلسبس < تعهد بمنع السفن الحربية البريطانية من المرور فى قناة السويس وحنث بتعهده.
- خيانة خنفس باشا قائد حامية القاهرة< سلم القاهرة للغزاة دون مقاومة.
- خيانة البعض من بدو الصحراء < أرشدوا الانجليز على مواقع الجيش المصرى.

obeikan.com

ـ خيانة بعض ضباط الجيش المصرى من الشركس > كشفوا للإنجليز نقاط الضعف بالجيش.

ـ خيانة السلطان العثمانى > أعلن عن عصيان عرابى بدلا من مؤازرته.

ـ قوة أسلحة الانجليز، واستخدامهم عنصر المفاجأة

فاجأوا عرابى بهجومهم فى موقعة التل الكبير أثناء نومه هو وجيشه، وقبضوا عليه قبل أن يكمل لبس حذائه.

* * *

فى مثل هذه الأحوال ينشغل المصريون بأثر الحدث دون الحدث نفسه وبالذات بالجانب الدرامى منه، ولا يلتفتون للأسباب الموضوعية والذاتية التى تسببت فى حدوثه.

إذ غالبًا ما يستبد الأسى والحزن بالناس بسبب تعرض بطلهم للغدر، دون ذكر أى شيئ عن أخطائه أو القول ـ لمجرد المعرفة ـ أنه لو لم يفعل كذا ما حدث كذا، ولكنه فعل كذا مضطرًا للأسباب كيت وكيت، ويستمرون فى سرد الممارسات المنحطة التى لولاها لانتصر بطلهم النبيل المترفع عن مثل هذه الدنايا، ويواصلون الانغماس فى الشق العاطفى للمصيبة، وبمرور السنين والحقب وتوالى الأجيال وتكرار المصائب يبدأ الناس فى التلذذ بصفعات القدر، ألذى يواصل اضطهادهم لأكثر من عشرين قرنًا من

obeikan.com

الزمان، مما يشى بتورطهم هم أنفسهم فى صنع صورة خرافية للبطل، كنوع من الدفاع عن النفس، أو نوع من الترويح عن النفس، أو نوع من الإستراحة الضرورية فى مثل هذه العروض التراجيدية المتواصلة.

ونتيجة لعدم شيوع التناول الموضوعى للحدث، لا ينتبهون إلى أن بطلهم أحمد عرابى تعرض لكمية من الخيانة لا يمكن حدوثها مجتمعة، فى وقت واحد، ولشخص واحد، وفى بلد واحد، إلا إذا كان شخصاً وضع نفسه فى مكان غير مكانه، ومارس عملا غير عمله، وغير ملم بأبعاده، أو على معرفة وافية بحقيقة أطرافه، أو القوى الفاعلة فيه، أو بالظروف المحيطه به، وغير مقدر لخطورته، بحيث لا يفترض أبداً خروجه منه سليماً، فضلا عن تحقيقه أى هدف من الأهداف الذى قصدها.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، فى الوقت ألذى حدثت فيه الثورة العرابية كان الأسطول البريطانى يعمل بلطجياً فى كل بحار العالم، ناهيك عن أن بريطانيا وقتها كانت تحصد أرباح الثورة الصناعية، وملكة عصر البخار، وفى إطار بحثها عن أسواق لتصريف الإنتاج الكبير تحولت لإمباطورية عظمى تملك استراليا وأمريكا ومستعمرة للهند ألخ، وبريطانيا هذه نفسها وقفت فى وجه حفر قناة السويس مكتفية باستخدام ميناء الإسكندرية وميناء السويس مروراً بالدلتا طريقاً للهند، لأنها لم تكن تريد طريقاً سهلا يفتح أمام العالم فيسير فيه كل من هب ودب من أصحاب السفن، ولذلك قنعت بإصلاح طريق القاهرة السويس التى أقنعت عباس الأول بالقيام به،

وشجعته على مد خط سكة حديد بين السويس والقاهرة وخط آخر بين القاهرة والإسكندرية بما يوضح للسياسى أو رجل الدولة وكل من له علاقة بالشأن العام والأمن القومى المصرى مدى اهتمام بريطانيا بمصر هذا بالطبع لو أنه نسى محاولة غزوها لمصر فى ١٨٠٧ (حملة فريزر) ناهيك عن أن رئيس وزراء بريطانيا آنذاك وهو خصم عرابى كان وليم إيوارت جلادستون رجلا مخضرمًا، تجاوز السبعين من عمره، تولى الوزارة عدة مرات فى مواجهة عرابى ابن الواحد وأربعين ربيعًا، الذى لم يمارس السياسة فى حياته، وخبرته تتمثل فى مشاركته فى الحرب فى إثيوبيا، فضلا عن ترقيته حديثًا إلى رتبة أميرالاى، وكل الدلائل تشير إلى أن معلوماته عن قوة بريطانيا ومركزها العالمى فى ذلك الوقت لم تكن كافية، بينما كان الخديوى توفيق فى السادسة والعشرين من عمره، وصل للحكم بعد أب عزله الإنجليز المسيطرون على اقتصاد البلد هم والفرنسيون، من أجل هذا يعرف من تكون بريطانيا، ولابد أنه سمع من أبيه ما فعلوه بأسطول جده إبراهيم باشا عندما كاد أن يدخل القسطنطينية.

الخديوى توفيق يعرف الإنجليز معرفة تفوق معرفة عرابى التى لا تبعد كثيرًا عن معرفة العامة، فيما عدا رجال من أمثال الشيخ محمد عبده ونظرائه من النخب وكل هؤلاء كانوا يرون فى هوجة عرابى خطرًا داهمًا باستثناء محمود سامى البارودى الذى وإن كان من النخب إلا أنه استسلم

لطموحاته الجامحة التى وصلت به لحد تصوره أن هوجة عرابى قد توصله للجلوس على الأريكة الخديوية[١].

ومنتهى الظلم للخديوى توفيق اتهامه بالخيانة لأنه يعرف أن انضمامه لعرابى ضد الإنجليز لم يكن لينقذ مصر من مصيرها المحتوم، وأن كل ما كان سيحدث هو فقده لعرشه، وانهيار الدولة المصرية، والعجز عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وعلى غرار العبارة التى لا لزوم لها أو التى لا تقدم ولا تؤخر والتى تكتب على علب السجائر القاتلة " التدخين مضر جدًا بالصحة "

أقول للقارئ " هذا حكم يصدر من غير متخصص فاحذره "

ومع ذلك فإن ما يدفعنى إلى قول ما قلت هو مسلسل الفشل الذى نعيشه حقبة بعد أخرى، وانكسار يليه انكسار.

فهل من المعقول أن يكون بلا سبب؟

أليس للنجاح أسبابه والفشل أسبابه؟

وهل من المعقول ألا يكون لنا دور فى هذا الفشل؟

يقول إيمانويل كانط " كن جريئًا فى إعمال عقلك " وإذا كانت هذه الجرأة حُرِّمت علينا فى المسائل الدينية، فكيف نحرمها على أنفسنا أيضًا فى إعادة قراءة تاريخنا بجرأة أكثر، وإعادة تقييم الزعامات من منطلق كونهم بشرًا وليسوا آلهة.

---

(١) ورد هذا المعنى فى كتاب للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى.

ولمارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مقولة تعد مقياساً بسيطاً (وربما دارجًا) لقيمة أى زعيم سياسى، وقد صدرت عنها عندما أجبرت على التخلى عن الحكم فقالت:

" عزائى أنى تركت بريطانيا وهى أحسن حالا مما كانت عليه يوم توليت الحكم "

هذه وسيلة بسيطة للقياس

فهل ترك عرابى مصر وهى أحسن حالا مما كانت عليه قبل ثورته؟

ألم تكن دولة مستقلة تابعة شكليًا للخلافة العثمانيية فأصبحت محتلة من إنجلترا؟

ونفس المقياس نطبقه على جمال عبد الناصر وعلى من تلاه من حكام

هل ترك عبد الناصر مصر أحسن حالا عما كانت عليه يوم قيامه بثورته؟

أم تركها محتلة من دولة كانت مجموعة عصابات قبل عام ١٩٤٨؟

وإذا ما عدنا للسياق سنقول لو افترضنا أن عرابى يعرف الأرض التى سيقف عليها عند قيامه بهوجته معرفة جيدة، ويعرف الإنجليز معرفة تساوى بل تزيد على معرفة الخديوى توفيق لها فإن السؤال الذى سيواجهنا هو:

أليست الخيانة سلوكًا مفترضًا فى عالمنا، وأداة من أدوات المعارك السياسية والحربية؟

إذا سلمنا بذلك فكيف تُتّخذ الخيانة مبررًا لفشل الزعيم؟

أعرف أن هذا حكم قاس على رمز من رموز الوطنية المصرية، تربينا جميعًا على الاعتزاز بسيرته، وكتبنا فى صغرنا موضوعات انشاء تمجيدًا لثورته العظيمة، ولا مانع عندى أن أكون واحدًا من المشاركين فى الزفة، فمن يكره الفَرْح، ولكن المشكلة أن ما يعتبر قسوة فى الحكم هو بذاته الضمانة الوحيدة لحماية الأجيال اللاحقة من الوقوع فى الخطأ نفسه، وهو عنصر أساسى فى منح شعب ما صفة أمة، أى كيان متصل، حاضره غير منفصل عن ماضيه، وأن حركتها إلى الأمام بسرعة أو ببطء، توقفها أو تراجعها، هو محصلة تفاعل القوتين.

ويحضرنى قول المؤرخ أ. ج. هوبزوم " يجد المؤرخون أنفسهم يقومون بدور النشطاء السياسيين " يعنى إنحيازهم لهذا الطرف أو ذاك، من منطلق سياسى وليس علميًا، تحقيقًا لمصالح شخصية، أو حتى خوفًا من السلطة.

* * *

لنقفز سبعين عامًا بعد ثورة عرابى لنصل إلى ثورة يوليو ١٩٥٢، ومنها لحرب ١٩٥٦.

قيل أن سبب هزيمة ٥٦ هو تآمر إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر، وهى بالفعل مؤامرة، خطواتها كانت كما يلى:

- اسرائيل تهاجم شبه جزيرة سيناء
- سيندفع الجيش المصرى لعبور كبرى الفردان لإلقاء إسرائيل فى البحر كما يردد قواد ثورة يوليو من الشباب ألغارق فى حماسه وفتوته.
- تقوم انجلترا وفرنسا بإصدار إنذار للقوتين المتحاربتين بالإبتعاد عن شاطئ قناة السويس عدة كيلو مترات
- سترفض مصر الإنذار
- يبدأ الهجوم الإنجليزى الفرنسى على بور سعيد
- يتم ضرب كبرى الفردان ويحاصر الجيش بين القوات الإسرائيلية وقوات إنجلترا وفرنسا ويتم إبادته.

هذه كانت المؤامرة، نُفذت بحذافيرها، وقامت مصر بالدور المسند لها تماماً.

أمرت القيادات الشابة، قليلة الخبرة، بدفع الجيش المصرى إلى سيناء لإلقاء إسرائيل فى البحر، حسب ما قيل أيامها، ورفضت الإنزار الإنجليزى الفرنسى.

لم يخفف من آثار هذه المؤامرة إلا سرعة إنسحاب الجيش المصرى وتفادى إبادته، وشيئ آخر فاجأ المعتدين كما فاجأ العالم وهو استبسال أهل بورسعيد فى الدفاع عن مدينتهم.

حتى تاريخه، ورغم مرور أكثر من خمسة وخمسين عامًا، لم نسمع عن دراسة جادة تفشى المستور، وتوضح خسائرنا فى هذه الحرب بالأمانة الواجبة، ولم يُكشف عن الوثائق التى تضع النقط على الحروف، وتحول الوقائع الى مزارات تنتفع بها الأجيال اللاحقة، وتصنع لها ذاكرة مليئة بالحقائق لا الضلالات التى ظلت تكبر حتى قادتنا إلى حرب ٦٧

إذ أن ناصرًا اهتبل الفرصة، (الهزيمة فرصة) ووظف حالة عدم التكافؤ بين المعتدين وبين مصر، فى جلب تعاطف العالم الخارجى، أو ما يسمى بالمجتمع الدولى وكان فى هذا الزمن فى طور النشوء، ويكتسب كل يوم أرضًا جديدة بسبب التنافس بين المعسكرين الغربى والشرقى (الحرب الباردة).

أعاد جمال عبد الناصر تصميم دعايته، أو إعلامه مرتكزًا على حكم غير صحيح على اطلاقه، وهو انتصارنا فى حرب ١٩٥٦ وظهر فى الأفق لأول مرة قوة وأثر ما يمكن أن يطلق عليه الإعلام الموجه، الذى يصمم خطابه على أساس التركيز على جانب مختار من الحدث، وبتسليط حزمة من الأشعة الضوئية المبهرة عليه عندئذ يتعذر رؤية الجوانب الأخرى التى قد يكون تركيز الضوء عليها أكثر أهمية، وأجدى فائدة، وعلى الأخص فى المدى الطويل.

استخدم فى تحقيق ذلك جحافل الكتاب والشعراء والفنانين والملحنين والمطربين التى ورثتهم ثورة يوليو من بين ما ورثت من كنوز عصر الملكية

الدستورية، ومن هذه النقطة بدأ يتشكل تاريخ آخر، تاريخ مصنَّع بنظام الهاند ميد[1].

إذا أضفنا إلى ذلك ما يقوم به مصمموا التاريخ القومى المدرسى من ابداع، نجد أنفسنا لا نتعامل مع تاريخ وإنما مع اسطورة قومية، أو مع حدث فى طريقه ليصبح أسطورة، وكلاهما يشكلان مركزًا مستدامًا للإحتفالات القومية، ومما يؤسف له حقًا، أنك إن سألت أى شخص الآن مهما كان عمره فلن يذكر إلا السطر الذى حفظه فى المدرسة كجزء من مادة التاريخ، أو كواحد من موضوعات الانشاء، وهذه بالضبط هى القنبلة التى صنعها أو على أقل تقدير وافق على تصنيعها المؤرخون، والتى انفجرت بعد ذلك بإحدى عشرة عامًا ونتيجتها هزيمة ٦٧.

إذ رغم ثبوت عدم الكفاءة العسكرية التى توجب عزل قائد الطيران صدقى محمود إلا أن هذا لم يحدث بسبب تمسك القائد العام (عبد الحكيم عامر) به، ورغم أن عبد الناصر كان القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو ما يعطيه الحق فى عزله، إلا أنه لم يصر على ذلك حتى لا يغضب عبد الحكيم عامر من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى لا يلقى بظلال من الشك على ما اعتبر نصرًا مطلقًا، وحتى لا يشجع أحدًا على العبث ببذور الأسطورة التى بدأت فى أخذ طريقها للوجود.

---

(١) هذه المدرسة الإعلامية ظلت تمارس عملها حتى نهاية حكم مبارك، وهى الآن فى ٢٠١٥ على المحك، ولا نعرف ماذا سيكون عليه حالها فى المستقبل القريب.

ضُرِبت الطائرات فى ٥٦ وهى رابضة على أرض المطارات، وضُرِبت وهى فى مكانها نفسه فى حرب ٦٧ ، رفعوا حطام طائرات ٥٦ ليستبدلوها بطائرات جديدة ثم ينتظرون عدة سنوات ليروا ما إذا كان الطيران الإسرائيلى مازال بالكفاءة نفسها أم لا؟ كما لو كانوا يريدون الاستمتاع بالعرض الجديد، أى بلاهة.

عندما وضع " موشى ديان " خطة حرب ٦٧ نبهه مساعدوه أنها نفس خطة حرب ١٩٥٦ قال لا تشغلوا بالكم إنهم لا يتعلمون من أخطائهم.

باختصار قوم لا ذاكرة لهم.

هذا مجرد مثل سيق لفرط وضوحه أو فجاجته.

السؤال هو أكان من المستحيل التنبه لهذه المؤامرة قبل وقوعها؟

الإجابة: نعم

ولست أنا صاحب " نعم "هذه وإنما قائلها عالم الجغرفيا الجليل الدكتور محمد عوض محمد[١]، وذلك فى كتابه " الاستعمار قديمًا وحديثًا "[٢].

فأوضح أنه عندما بدأ العدوان الإسرائيلى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وتناقلته وكالات الأنباء العالمية سأله أصدقاؤه اليابانيون

---

(١) كان وقتها ملحقًا ثقافيًا فى السفارة المصرية باليابان.

(٢) فى طبعته الثانية حيث أضاف إليه فصلا عن حرب ٥٦.

obeikan.com

عن رأيه، أجاب أنا أعجب، لماذا بدأت إسرائيل هجومها من جنوب سيناء وليس من شمالها حيث قواعدها العسكرية؟ لماذا تتجشم سير مجنزراتها كل هذا الطريق الطويل بلا طائل وتهجم من أبو عجيلة؟

ليس لهذا إلا تفسير واحد وهو أن الإنجليز والفرنسيين سيقابلونها بالهجوم على بورسعيد.

قال ذلك قبل صدور الإنذار الإنجليزى الفرنسى

هذه الإجابة تشير إلى جنسين، أو فصيلين من الجهل، أولاهما عسكرى، وثانيهما سياسى.

ـ العسكرى: كيف لم يسأل العسكريون أنفسهم السؤال نفسه وهو من صميم تخصصهم؟

ـ السياسى: كيف لا أتوقع هجوماً من إنجلترا وفرنسا بعد تأميم القناة وتهديدهم بالحرب، خاصة وقد حشدوا مدرعاتهم بقبرص وطلوها باللون الأصفر لون الصحراء أرض المعركة.

مما تقدم يتضح أننا أمام مؤامرة، ومن الطبيعى أن تصيب ما أصابت، ولكن العيب هو أنها لم تُفتَرَض، رغم وجوب إفتراضها، وهذا يعتبر نقصاً فى قدرات البطل أو الزعيم لابد من التنويه عنه، وعند السكوت عنه، ينتقل النقص فى قدرات الزعيم، إلى نقص فى قدرات التاريخ كمعلم للأجيال المتلاحقة، ويوصمه بالجهل والبلادة.

---

(١) كان وقتها ملحقًا ثقافيًا فى سفارتنا فى اليابان.

الخيانة، والمؤامرة، وخلط الأوراق، والخروج على السلوك القويم، كلها ممارسات حقيرة لها وضعها المحترم فى القاموس السياسى، ومن لا يحسب حسابها، ويعمل على إتقانها فليس له أبدًا أن يعلق عليها فشله، لأن مسئوليته ستظل على ما هى عليه، ولن تعتبر ظرفًا مخففًا.

* * *

ليس لى أن أتهم كل الباحثين بذلك، وبالتالى إذا ما سلمنا بوجود الباحث المحايد، الموضوعى، الذى لا يأخذه فى الحق ـ كما يقولون ـ لومة لائم، ومع تسليمنا بتوفر الناشر المناسب، المستعد لتحمل المخاطر، فهذا كله غير كاف، لأن عملية النشر فى العصر الحديث يلزمها عملية مكملة لا تقل عنها أهمية إن لم تزد وهى عملية الطرح، أو العرض، وهى عملية تحدث فى الدول المتقدمة بشكل تلقائى نتيجة الإحساس بالمسئولية الثقافية لدى النخبة، والتأجج الثقافى الدائم، يضاف الأفق التجارى الرحب لدى الناشرين، وحاجتهم الماسة لتمييز كتبهم وسط زحام النشر، وتعدد مجالات التأليف.

أما فيما يخص الدول المتخلفة، فرغم حاجتها الملحة لمفاعلات الطرح بسبب القصور الحاد فى شراء الكتب، وتدنى التردد على المكتبات العامة، إلا أنها غير موجودة بالصورة التى هى عليها بالدول المتقدمة، بل والأدهى والأمر أنه لو وجدت دوافع الطرح لدى شخص أو جماعة يمكن للسلطة الحاكمة أن تمنعه وتعاقب القائمين به لو شعرت بخطورة ذلك عليها، أو

تعارضه مع اتجاهاتها، وفى المقابل فإنها ـ أى السلطة الحاكمة ـ تلجأ إليه فى حالة رغبتها فى إبراز ما تريد إبرازه، فالطرح إذًا عملية بالغة الخطورة فى الحالتين، حالة ممارسته، وحالة الإمتناع عن ممارسته، مما يلزمنا بإلقاء مزيد من الضوء عليه.

* * *

النشر عملية معروفة، وهى وضع مادة ما فى كتاب ما، والكتاب له باب، ينتظر من يفتحه ويدخل إلى عوالمه، ولكن من عيوبه أنه لا يذهب للقارئ وإنما ينتظر فى المكان ألذى وضعه قدره فيه، والمشكلة الأكثر تعقيدًا أن ما بداخله لا يقفز ويدخل فى عقل القارئ، ولكن على القارئ أن يفتح بابًا لدخوله والترحيب به، وتبقى مسألة الفهم، وإدراك محتواه، والقدرة على الربط بين ما تحصَّل له من معرفة وبين سائر المعارف، المختزنة فى ذاكرته، وهذه تتوقف على قدرات القارئ، والوقت المتاح له إذا لم يكن من المتخصصين فى نفس المجال، والشيئ نفسه يمكن قوله بالنسبة للنشر الإلكترونى.

إذًا فالكتاب ورقيًا كان أو إليكترونيًا إما أن يكون مقبرة، قد تزار فى المواسم والأعياد، وقد تنسى أو تهدم، وإما أن يكون قصرًا أو متحفًا هناك دائمًا من يزوره ويستمتع بمشاهدة مقتنياته والتعرف عليها، أو مقامًا لولى، هناك دائمًا من يلف حوله لنيل البركة، وهنا يبرز التمايز بين النشر والطرح.

ـ النشر يعتمد على وجود مُؤَلف، وقارئ، وناشر.

ـ الطرح يعتمد على وجود هدف وشخص مستهدف،ومادة مقصودة بذاتها. تتوقف قوة الطرح على حاجة صاحب المصلحة وقدراته، وكنموذج، فى ستينيات القرن الماضى أصدرت ثورة يوليو كتابًا أسمته، الميثاق، لم ينشر فقط، بل طرح، وطرح بقوة إلى حد أننى عندما ذهبت لخطبة زوجتى هذه وجدت أن من حسن الفطن أن أُسْمِع والدها فقرة منه ليعرف إلى أى حد أنا وطنى ومثقف ومحب للإشتراكية، الرجل سعد جدًا بمبادرتى، أما زوجته فتصورت أنى مختل عقليًا، وتأجل الزواج عدة سنوات حتى ثبت لهم سلامة قواى العقلية، بينما بعد الزواج ثبت لى أنا وليس هم عدم سلامة قواى العقلية.

ونموذج آخر غير الميثاق، كتاب فلسفة الثورة لعبد الناصر والكتاب الأخضر للقذافى حاكم ليبيا السابق، وما أدراك ما الكتاب الأخضر فى أى وقت فى الليل أو النهار تفتح المذياع على الإذاعة الليبية تجدهم يعرضون درة من دررالكتاب الأخضر.

ـ الطرح يستخدم كل أنواع الميديا، مكتوبة ومسموعة ومنظورة، قد يستخدم الأغنية والتمثيلية والنكتة والكاريكاتير، لذلك له ميزانية تكبر وتصغر حسب الهدف، يقوم بفتح المقابر، ولديه من القوة ما يمكنه من إعادة الروح إلى ساكنيها، يفتح القصور المهملة المغلقة على

obeikan.com

مقتنياتها الثمينة أو الوضيعة، وينفض التراب عنها ويصقلها، ثم يعرضها فى معارض كمعارض الفن التشكيلى، ويقوم المحللون بتحليلها، والمثقفون أو محترفو الثقافة بتبنيها وتقديمها إلى الإعلاميين، ويقوم كتاب السيناريو بتحويل ما يصلح منها إلى مسلسلات، أو أفلام، وتقوم وزارة الثقافة بعقد الندوات فى قصور الثقافة للحديث عنها والتنويه بما تتضمنه من مواقف، كما أن الطرح مرهون بفترة زمنية محددة، هذا هو الطرح السياسى، أما الطرح الثقافى والقومى فيعنى أن نمد يدنا إلى أرفف المكتبات ونسحب الكتب التى نرى أنها تحتوى على مادة، تنفع فى هذا الوقت،أو ذاك الظرف، أو تلك الحادثة، واختيار الميديا التى تناسبها، وتوظيف كل وسائل الدعاية وأساليبها المحترمة منها وغير المحترمة لبث المادة المراد عرضها، فعالمنا هذا رغم جحوده غير مدين لشيئ فى تقدمه غير المعلومة والفكرة المدونة، وبالمناسبة، وفى تخلفه أيضًا.

- الطرح له دائمًا غاية ما، بمعنى أنه لا يوجد شيئ اسمه الطرح للطرح بينما يوجد ما يسمى النشر للنشر، والتأليف للتأليف، فقد توجد جهة حكومية أو ثقافية تريد توثيق حدث ما فتكلف أحد الكتاب بتأليف كتاب عن هذا الحدث حتى لا تخلو منه المكتبة، رغم أنه من المفترض أن الإقبال على قراءته سيكون محدودًا ولا يتجاوز دائرة المعنيين، وكثير من المؤلفين

بدافع من أهوائهم أو بلاهتهم يؤلفون للتأليف نفسه، وهم ربما لا يعرفون ما إذا كان مؤلفهم سينشر أم لا، وهو ما ينطبق فى كثير من الأحيان على الوجوديين، وأنا من هذا النوع المسكين.

أخذت أكتب ما يزيد عن خمسين عامًا دون أن أحاول نشر حرف واحد، فيما عدا مسرحية من فصل واحد نشرتها لى الجامعة الأمريكية وأنا فى باكورة شبابى، ومن خلال مسابقة أدبية أعلنت عنها، ولم يحدث أن كتبت للنشر أبدًا، ولم أقدم فى حياتى شيئًا كتبته لأى ناشر أو لأى جهة، فأنا لا أستطيع الوقوف فى الطابور، أى طابور، ولا أملك الأعصاب التى تمكننى من سماع شخص، أو جهة تبدى رأيا فيما كتبت، كأن كتاباتى هى دمى الذى قررت سكبه، ولا أرى من حق أحد أن يبدى رأيًا بخصوصه طالما هو دمى أنا، وثمنه هو حياتى أنا، والتى من واقع تجربتى الشخصية لا تعنى أحدًا غيرى........ أنا.

ألطرح إذًا عملية قائمة بذاتها، أو صناعة لها مواصفاتها، وأدواتها وتمليها الحاجة، التى تتباين فى أهميتها وضروراتها.

هنا تأتى أهمية الطرح، ودوره، وخطورته، إنه أداة بث لمعلومة معينة، فى وقت بعينه، على فئة بعينها، بغرض الوصول لنتيجة بعينها مثل كتاب " كفاحى " لهتلر مثلا.

وقد يجد اتحاد كتاب مصر أو المجلس الأعلى للثقافة وجود حاجة ملحة الآن لطرح ديمقراطية مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ حتى يعرف شباب

ثورتى ٢٥ يناير وثلاثين يونيو، أن الديمقراطية ليست جديدة على هذا الشعب، وأن له فيها باعًا طويلا، وفى مثل هذه الحالة عليهما تكوين لجنة أو لجان لطرح الكثير من الممارسات السياسية ذات القيمة وذات النفع، وإعادة إحياء ذكرى رموز سياسية ووطنية لعبت دورًا عظيمًا فى صنع نهضة حقبة الملكية الدستورية من ١٩٢٣ إلى ١٩٥٢ والتى تسمى أيضًا بالحقبة الليرالية، والزمن الجميل.

* * *

إذًا لا يكفى أن يقال أن هناك من ألف كتابًا سجل فيه رؤيته المحايدة لثورة عرابى أو ثورة يوليو، وأنه أوضح أن كلا منهما كان كارثة شقت لنفسها طريقًا خاصًا أوقفت به مشروع النهضة المصرية ألذى كان يسير على النهج الأوربى، وخطوة بخطوة مع الصحوة اليابانية، إذ لابد من العملية المكملة للنشر وهى الطرح وهو ما لم يحدث.

أعرف أنها أحكام قاسية، وصادمة، ولكن إذا عرفنا أو تصورنا حجم التراكمات الحضارية المهولة التى أهدرت بسبب انعدام الخبرة لدى من قاموا بهذه الثورات للتمس لنا المنصفون العذر، أما غير المنصفين فلا حيلة لنا معهم.

ما بين السكرة والفكرة

التاريخ يقول: فى منتصف القرن العشرين كانت مملكة مصر والسودان الدولة الأكثر تحضرًا فى الشرق الأوسط وإفريقيا. تحصلت على مزايا نسبية تم الاستهتار بها والإستغناء عنها بنوع غريب من السفه.

بتجبر مرعب أغلقت صفحة ما قبل يوليو بالضبة والمفتاح، وفتحت صفحة جديدة، فتوقف التواصل، وأوقفت اتجاهات واعدة، وديست بالأقدام بذورغرست وكانت فى طريقها للنمو.

وسمعنا من يقول مزهوًا بأن ثورة يوليو أنشأت مصانعًا كذا وكذا، ومع التكرار المفرط، والمبالغة فى الزهو، رسخ فى أذهان الناس حتى تاريخه أنه لو لم تقم (أى ثورة يوليو) ما كان لهذه المصانع أو غيرها أن يُنشأ، وهذا استنتاج خاطئ، وفساد فى الاستدلال كما يقول رجال القضاء فى أحكامهم، لأنه طالما أن مصانعًا كثيرة وهامة أقيمت قبل الثورة فما الذى كان سيمنع تواصل إقامة غيرها فى تاريخ لاحق على يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ خاصة أنه إحصائيًا ٨٥٪ من المصانع أنشئ فى الفترة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٠،

أليس المجتمع هو نفس المجتمع؟ والفكر هو نفس الفكر؟ لماذا نفترض أنه لن يكون هناك المزيد منها فيما يأتى من سنين؟

ومع ذلك نجد أنفسنا أيضًا نقف أمام أناس وقعوا ضحية إعادة انتاج التاريخ، ليكن فى خدمة الحكام الحاليين فَيَدَّعون أن ثورة يوليو صاحبة النهضة الصناعية، وكأن طلعت حرب لم ينشئ صناعة وإنما أنشأ " كبريهات " وملاهى.

إذا كنا معنيين بالوصول لحكم صائب منزه عن الغرض، وجب رسم خط بيانى، نقطة بدايته عدد المصانع التى أنشئت منذ طلعت حرب حتى

قيام ثورة يوليو، ثم بفرض بقاء العوامل الأخرى على حالها (وعدم قيام ثورة يوليو) نترك هذا الخط ليتحرك بحرية بنفس المعطيات المحلية والدولية، ثم نرصد النقطة التى سيصل إليها فى نهاية الثمانينيات على سبيل المثال.

أعتقد أن خطنا البيانى[1] كان سيصل إلى نقطة تساوى وربما تعلو عن النقطة التى وصلت لها الصناعة فى بلد مثل كوريا الجنوبية أو تركيا أو الهند أو جنوب أفريقيا، إذ ما الذى يدفعنا لتصور أننا سنكون أقل من هذه الدول، طالما كنا متقدمين عليهم أو متساوين معهم عند خط البداية؟

فهل نحن كذلك الآن؟.

وفى غمرة حالة الشجاعة التى أفترض إبتلاءنا بها على غير إرادتنا، وحققت القدر الضرورى من التجرد لسلامة الحكم على الأمور، وهو الشرط الأساسى للعبة الإنتفاع بالتجارب السابقة، لا يفوتنا ذكر، أن كتابنا ومفكرينا وفنانينا الذين عرفناهم فى الخمسينيات والستينيات وربما بعض السبعينيات من القرن الماضى نشأوا وتعلموا وتربوا فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن نفسه، أى قبل قيام ثورة يوليو وبعدها بقليل، فلا فضل لها فى تكوين طه حسين أو العقاد أو يوسف إدريس أو

---

(١) باستخدام الحاسب الآلى يمكن الحصول على النموذج المطلوب بدرجة لا بأس بها من الدقة.

عبد الوهاب أو أم كلثوم أو حتى جمال عبد الناصر (لمن يعتبره بطلا أو زعيمًا) فكله نشأ وتربى وتشكل وأرضع الوطنية على يمين خط خط ٢٣ يوليو ١٩٥٢، نتيجة للخطاب الوطنى الذى صممه فى بداية العشرينيات من القرن العشرين رجل مثل محمد رفعت المدرس بوزارة المعارف وعالم التاريخ ألذى جعل لهذا الخطاب ركيزتين أساسيتين التاريخ الفرعونى وتاريخ محمد على باعتباره مؤسس مصر الحديثة بجيشها وأسطولها ألذى صال وجال فى المنطقة وتجاوزها إلى اليونان وإفريقيا ناهيك عن مشروع نجيب الهلالى وزير التربية والتعليم الذى قدمه للبرلمان وحقق ثورة حقيقية فى التعليم.

غير أن ما حدث فى التسعينيات وما بعدها من تدهور ثقافى وفنى وسياسى وديمقراطى، فمن فعل من تربوا ودرسوا وتشكلوا على يسار هذا الخط.

إذا فنحن نتعامل مع نصف الحقيقة، أو مع حقائق مبتسرة، أو مع أوجه وزوايا منتقاة بواسطة أناس مغرضين لهم مصلحة فى طرحها على هذه الصورة.

* * *

إذا ما عدنا إلى موضوعنا، وهو تلاحق ثوراتنا بفارق زمنى ملفت للنظر، وبتكلفة باهظة، سنلاحظ الافتقار إلى وجود دراسات مقارنة

للثورات الثلاث السابقة على ٢٥ يناير، دراسات موضوعية، تظهر ما لها وما عليها، وتكون لوجه الله والوطن، وبعيداً عن كل المؤثرات المتوقعة من أطرافها الذين قد يكونون على قيد الحياة، كعائلة الزعيم، أو من حصلوا على مراكزهم الحالية بفضله، أو من ترتبط أرزاقهم بسياساته.

العالم المتقدم كله يفعل ذلك، ويعتبر التعتيم على الأحداث التى تقع أو العبث بها والكذب بشأنها من الكبائر.

اللـؤلـؤة

أقرب مثل على ذلك هو إسرائيل، ألذى كما قلت من قبل وأقول الآن وكل يوم أن شعبها يستيقظ كل صباح ليجد نفسه عند نقطة أكثر تقدماً مما كان عليه فى الليلة السابقة، بما فى ذلك القضمات التى يلتهمها يومياً من الضفة الغربية والقدس.

وهذا من المفترض أن يجبرنا على فحص سلوكياتها جيداً ليس فقط بغرض المعرفة بل أيضاً بغرض المحاكاة إذا لزم الأمر، وهذا ليس عيباً، ولدينا فى الطبيعة نموذجاً مدهشاً، وهو حيوان اللؤلؤ، ألذى إذا اقتحمه جسم غريب (عفاشه) لا يموت وإنما يصنع لؤلؤة تحميه من هذا الجسم، واليابان على سبيل المثال هُزمت فى الحرب العالمية الثانية، واحتُلت بواسطة الجيش الأمريكى، لم تمت، لم تزو، ولم تضمحل، ولم تضع وقتها فى الندب على اللبن المسكوب، وإنما صنعت لؤلؤتها التى حمتها من الدمار

وهى الصناعة، والتقدم الإقتصادى المذهل، وكذا ألمانيا الغربية، التى شقها جيش الحلفاء إلى نصفين لدرجة أن أصبح الأب فى الغرب والابن فى الشرق.

وجود إسرائيل فى المنطقة العربية كان من الممكن أن يحدث نفس الشيئ، ويحيل مصر إلى لؤلؤة تبهر العالم، لو أنها تملك ردود الفعل الطبيعية وغير المرضية أو التشنجية أو الشّعرية أو البكائية أو الخطابية أو العدمية أو النرجسية.

المحميات التاريخية

إسرائيل هذه كلفت لجنة برئاسة قاض للتحقيق فى وقائع حرب ٧٣ وفحص كل ما حدث وإدانة من يستحق الإدانة وإثابة من يستحق الإثابة والاحتفاظ بصورة من كل مستندات التحقيقات لتكن "stand by" لأى عابر سبيل يريد الاطلاع على الحقيقة، وبعد معركتها فى لبنان كلفت لجنة برئاسة قاض آخر لعمل التحقيقات اللازمة، واستخراج العبر التى تصنع منها متاريس لوقاية الأجيال اللاحقة من الوقوع فى الخطأ نفسه، رغم أنها لم تهزم فى أى من الحربين، ولكن النتائج لم تكن مرضية بمعيارها هى وليس بمعيار العالم المرتكز على حسابات الأرباح والخسائر.

نحن رغم الكوارث والدواهى واستيقاظنا كل صباح لنجد أنفسنا رجعنا مسافة أطول للخلف، لم يحدث أن سمعنا عن قاض كُلف بالتحقيق فى

واحدة منها، ورغم مرور كل هذه السنوات فمعلوماتنا عن خفايا حرب ٥٦ غير متاحة، ومعلوماتنا عن أسرار حرب ٦٧ لا شيئ، ومعلوماتنا عن حرب اليمن ولا حاجة، ومعلوماتنا عن فشل الوحدة مع سوريا والخسائر التى ترتبت على هذه المغامرة غير معروفة، حتى حريق القاهرة ألذى حدث فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ أى قبل ثورة يوليو بشهور والذى مضى عليه الآن أكثر من ٦٥ عام لم يدرس الدراسة الكافية رغم أنه حدث مركزى بالغ الأهمية، لم يكتمل دوره الشيطانى المرسوم له لنسف الليبرالية المصرية إلا بحدوث انقلاب يوليو الذى تطوع طه حسين بتسميته ثورة يوليو.

كأننا لا نكتفى بارتكاب الخطأ ومكابدة آثاره، بل أيضًا نصنع منه محمية كالمحميات الطبيعية، يحظر على الجمهور التجول فى أرجائها، لتصبح بعد ذلك فخاخا تقع فيها أجيالنا اللاحقة.

فإين لنا ببرلمان بعد ثورتى ٢٥ يناير و٣٠ يونيو يكون لديه الحاسة الثقافية والتاريخية والغيرة الوطنية التى تدفعه لسن قوانين تفرض الشفافية على الأحداث القومية، وتفرض عقوبة رادعة لكل من يحاول إخفاء الحقائق، أو يفرض عليها التعتيم، أو يقوم بعمل مكياج لها بقصد تجميلها، والتخفيف من تأثيرها، مهما كانت الأسباب والمبررات، فلا شيئ يعدل فى قيمته معرفة الشعب للحقيقة، لأننا لا نعرف ما الذى يمكن أن يفعله بها أو كيف تتحول بين يديه، فالشعب ليس كما يتخيل البعض كلمة من ثلاث حروف، أو من رقم من ستة أو سبعة خانات، إنه مخزون بشرى،

طاقة بشرية، مكونة من ناس على قيد الحياة الآن، وآخرين سيكونون على قيد الحياة فى المستقبل، إنه محصلة عقول حالية ومحصلة عقول أخرى ستحل محلها فى المستقبل، وما تعجز عن حله العقول الماضية، قد تحله العقول القادمة، وما تعجز عن تحقيقه الطاقات الحالية، قد تحققه طاقات المستقبل، المهم أن نضع الحقائق أمام هذه الشعوب بالمعدل المعيارى للأمانة.

إشكالية طمس الحقائق

عندما تثار قضية بهذه الضخامة، تتجه أصابع الاتهام تلقائيًا لصناع القرار ألذين كان لهم دور فى طمس الحقائق والعبث بها، خلال هذا الحدث أو ذاك.

المنطق يقول ذلك.

لكن هناك متهم آخر يجب أن يوضع معهم فى قفص الاتهام، هذا المتهم للأسف هو الشعب المصرى، وتهمته هى الصمت، والسكوت عن المطالبة بالكشف الفورى عن كل ما له علاقة بالحدث القومى.

نحن إذًا أمام متهمين موضوعين فى قفص واحد، الأول، الحاكم، الثانى، الشعب.

بالنسبة للحاكم لا أملك ما أدافع به عن حقارته وانحطاطه، أما الشعب فأظن أن هناك الكثير مما يجدر ذكره.

obeikan.com

من أكثر من ألفى عام وحكامنا يهبطون علينا من خارج بلادنا، وبالطبع يختلفون عنا عرقًا ولغة ودينًا وثقافة، وعند انتظار حاكم جديد تتمثل ممارستنا السياسية فى ترديد هذا الدعاء " اللهم ولِّ الأصلح " وعندما يتولى الأصلح أو الأطلح تكون ممارستنا السياسية هى الدعاء له فى خطبة الجمعة بطول العمر والتوفيق مستخدمين عبارات سُكَّت لهذا الغرض، واستخدمت لمئات السنين بنفس كلماتها ومعانيها.

تغيرت الصورة نوعًا ما أثناء الحملة الفرنسية، حيث شكل نابليون مجلسًا من الشيوخ يكون له دور ما فى إدارة البلاد، كما أن الأحداث الدامية التى ترتبت على المقاومة لعبت دورًا ما فى غرس أول بذور المواطنة فى نفوس المصريين، فقام شيوخ الأزهر بلعب دور ما فى تعيين محمد على واليًا على مصر.

تغيرت الصورة بشكل درامى بعد ثورة تسعة عشر حيث أصبح للشعب دور فى اختيار الحاكم " رئيس الوزراء "(١).

أخذ هذا الدور خطًا بيانيًا صاعدًا فى جملته، وإن لم يخل من بعض السقطات التى أعاقت عجلته التزايدية، لكنها لم توقفها مما وعد بديمقراطية حقيقية تضارع ديمقراطيات العالم المتقدم.

---

(١) حسب دستور ١٩٢٣ رئيس الوزراء هوالحاكم وليس الملك.

غير أن ولع التاريخ المصرى بالدراما، ومعرفته بأسرارها، فجر مفاجأة من العيار الثقيل.

قامت حركة الضباط الأحرار، أسقطت الملك فاروق وضعته بالملابس الرسمية على ظهر الباخرة المحروسة بكامل جلاله وأبهته ومعه الأميرات والأمير الصغير والملكة الحسناء، ولم ينس التاريخ المبدع إطلاق المدافع للتحية......

تاريخنا؟

يا له من سيناريست.

توقف خط الديمقراطية الصاعد، ليس فحسب، بل تراجع إلى نقطة البداية.

عادت الآلية القديمة الراسخة، قوة عسكرية[1] تفرض الحاكم، ومعه سلطته المطلقة فى فرض ما يشاء من أوامر دون رقيب أو حسيب.

ووفقًا لهذه الآلية، ألغيت الأحزاب، حددت الملكية الزراعية، أصدرت قوانين الحراسات وقانون الطوارئ وأزاحت القانون العام وسنت قوانين استثنائية استمدت وجودها مما سمى بالشرعية الثورية، كما أممت المصانع والشركات وألغيت البورصة، وفرض سعر تحكمى للعملة الأجنبية.

---

(١) لا يفوتنا أنها قوة عسكرية وطنية وليست أجنبية.

لم نخرج من السياق عبثًا، ولم نسرد ما سردنا كنوع من الفندرة الثقافية، أو الفكرية، وإنما فعلنا ما فعلنا، وقلنا ما قلنا، وسحنا ما سحنا، لغرض بالغ الأهمية وهو الدفاع عن شعبنا فى جريمة يصعب الدفاع عنها، وهى ضعف، وربما إنعدام الطلب على معرفة خفايا الأحداث القومية، والطلب هنا لا يعنى الرغبة فى المعرفة من " س " أو "ص" فهى بالتأكيد موجودة، ولكننا نتحدث عن الطلب ألذى يطلق عليه الاقتصاديون " الطلب الفعال " أى المدعوم بقوة شرائية إذ لا يكفى أن تطلب خارطة بسبوسة لتحصل عليها إذ لابد أن يكون فى يدك ثمنها وفى حالتنا لابد من توفر الارادة السياسية، القادرة على استجواب المسئول من خلال المجلس النيابى، وإن تعذر، يكون التحرك فى الشارع فى شكل احتجاجات ومظاهرات واعتصامات ومقالات شديدة وجارحة فى الصحافة وغيرها، وتستمر الملاحقة حتى يتم الإفصاح، ثم التحقيق والمحاسبة وإدخال المسئول السجن أو إعدامه.

ولكن من أين يتولد الطلب الفعال على المعرفة السياسية؟

ألجواب: يتولد من وجود مكان محترم للشأن العام على سلم التفضيل لدى الجماهير، وهو ما يخلق الإرادة السياسية القادرة على كسر رقبة "التخين" فى البلد وإجباره على كشف الأوراق، وعرض الحقيقة كاملة،

وكما هى، وبحجمها الطبيعى بدون تكبير أو تصغير، الهزيمة هزيمة، لا نكسة، والكارثة كارثة لا حادث مؤسف.

وهذا ما يدعونا لتقييم علاقة المصريين بالشأن العام، لما لهذه العلاقة من أثر فى الأداء السياسى لأى شعب من الشعوب، ولدورها الفاعل فى الحفاظ على الأمن القومى لأى أمة من الأمم، ويمكننا القول بدرجة كبيرة من الثقة أن الأمة التى لا يحتل الشأن العام المكان الذى يستحقه فى نفوس الأغلبية الساحقة، هى أمة مكشوفة الظهر، وأمنها القومى، عرضة للاختراق من هذا وذاك.

ـ إسرائيل التى لم يكن لها مكان على خريطة العالم قبل ١٩٤٨ اخترقت أمننا القومى مرتين فى حرب ٥٦ وحرب ٦٧

ـ أبناء غزة صنعوا آلاف الأنفاق التى امتهنوا بها أمننا القومى، وسخروا من الدولة المصرية.

ـ منظمة حماس فى ٢٨ يناير ٢٠١١ اخترقت أمننا القومى، وهدمت السجون، وساعدت الإخوان فى هدم الشرطة توطئة لهدم الدولة المصرية فوق رؤوس المصريين

الا يدعونا هذا الهوان إلى أن نفتش فى نفوسنا بحثًا عن الداء؟

فى ستينيات القرن الماضى أطلق أحمد بهاء الدين الكاتب الصحفى الشهير شعار " اعرف عدوك "رحبت به الدوائر الثقافية، شمر الكثيرون

obeikan.com

عن سواعد الجد وشرعوا فى تأليف الكتب عن إسرائيل، وغاب عن الكثيرين أن الأهم من شعار " اعرف عدوك "هو "اعرف نفسك " لأن معرفتك لعدوك دون معرفتك لنفسك تجعلها معرفة أكاديمية، تتحدث عنها فى ندوة أو تدخل بها امتحان ليسانس أو ثانوية عامة، لكن معرفتك لنفسك أولا تضع أساسًا براجماتيًا لمعرفتك لعدوك، إذ هى التى تحدد لك ما ينبغى معرفته عنه فى هذه اللحظة، أو فى هذه المرحلة من الصراع، أما معرفتك لعدوك دون معرفتك لنفسك يجعل هذه المعرفة بلا جدوى، بل غالبًا ما تكون نتيجتها كارثية، ففى عدوان ٥٦ اندفع جيشنا إلى سيناء، وكان هدفه إلقاء إسرائيل فى البحر، وكثيرون كانوا على ثقة بتناولهم العشاء فى تل أبيب، عندما حان وقت العشاء تناوله الإسرائيليون فى سيناء.

وفى سياق محاولتنا لمعرفة أنفسنا يجدر الاعتراف بعدم وجود مكان محترم أو غير محترم للشأن العام على سلم التفضيل لدى الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى، وأشدد على تعبير الأغلبية الساحقة، إذ لن يغير من الأمر شيئ تواجدها بقوة عند أحمد لطفى السيد، أو طه حسين، أو من هم فى مستواهما أو أقل نوعًا، طالما كانت هذه المستويات غير قادرة على تحريك الجماهير فى اتجاه محاسبة الحاكم، أو حماية الأمن القومى، أو خلق الطلب على معرفة كل تفاصيل الحدث القومى.

فما السبب فى هذه الحالة الخطيرة التى تُعرِّض الأمن القومى بشكل دائم لخطر داهم؟

ألسبب فى تصورى إذا ما أخذنا مقولة " موريس هالبواكس " عالم الاجتماع على محمل الجد " التاريخ هو وسيلتنا لمعرفة الحاضر " فإن الفترة الطويلة التى حكم فيها الأجنبى مصر، صنعت مسافة كبيرة بين منطقة الحكم وبين المصريين، وأنا أستخدم كلمة منطقة ولم أستخدم كلمة نظام عن قصد، فالنظام مهما كانت درجة ديكتاتوريته أو حتى رداءته هو فى النهاية خارج من صلب الجماعة التى يفرض سيطرته عليها، بمعنى أنه مهما كانت درجة عزلته عن الشعب فثمة وشائح تربط بينهما، وثمة أمل فى الخلاص يكمن فى أغوار النفوس.

أما بالنسبة لمن حكموا مصر حتى بداية القرن التاسع عشر، فلا علاقة بينهم وبين الشعب المصرى، غربة مطلقة، لغة، ودينًا، وعادات، وتقاليد، واستمرهذا الحال زهاء ثلاثة آلاف سنة، فترسب فى وعى ولا وعى الناس أن أمور الحكم، بما فى ذلك أمن البلاد ليس شأنًا من شئون حياتهم، وبسبب هذا تهافت ـ وربما انعدم ـ الطلب على معرفة أسباب الحدث القومى.

لماذا؟

لأن هذا لن يقدم أو يؤخر فهم من حال الأصل لا يد لهم فى صنع الحدث، ولاقدرة لديهم على تصحيحه إن اكتشفوا خلله.

ولعل تلك الحكاية التى يقال أنها شاعت أيام الحملة الفرنسية على مصر توضح ذلك.

يروى ـ والعهدة على الراوى ألذى لا أعرفه ـ أن مترجمًا فرنسيًا من المرافقين للحملة خرج عن الطابور العسكرى القادم من بولاق متوجهًا للقلعة، وفضولا منه ـ ربما كمثقف ـ سأل أحد الجالسين على مقهى شهير إسمه " قهوة النشاط " عن رأيه فيما يراه، مشيرًا إلى أرتال الجند المارين أمامهما، حاملين أسلحتهم ومهماتهم.

سحب الرجل نفسًا طويلا من نرجيلته، ونفث دخانها بتؤدة، أجاب " يأخذوا لهم سنة والا سنتين ويتوكلوا، دا،ياما دقت على الراس طبول " وعاد ليسحب النفس التالى.

يرحلون أو لا يرحلون، لا فرق عنده، لأنه استبدال أجنبى بأجنبى، استبدال أغا ابن كلب، بخواجه ابن ستين كلب، وكله سيجرى فى المنطقة أو الإقليم الآخر، وهو إقليم الحكم ألذى لا يمت له بصلة.

من هنا استمدت الأحداث القومية قوة تتساوى فى نظر الناس مع قوة القضاء والقدر، إن كانت خيرًا توجه بالشكر لله، وإن كانت شرًا لاذ بدعائه الشهير " اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه "

هذه الحالة، أى حالة القطيعة بين الشأن العام والشأن الخاص، والمسافة الشاسعة التى تفصل بينهما فى نفوس المصريين، أفضت بدورها

إلى تحول آخر وهو اعتياد الناس على الاهتمام بأثر الحدث القومى دون الحدث نفسه، بمعنى أنه لو كان هناك حريق ما، سارعوا لإطفائه، وهذا شيئ طبيعى، ولكن غير الطبيعى هو اعتبار الموضوع منتهيًا عند هذا الحد، وعدم بذل القدر اللازم من الاهتمام لمعرفة أسبابه، وكيفية اتقاء تكراره.

لا أنكر وجود تداخل شديد بين الحدث وأثره، وأن التفرقة بينهما أو وضع فاصل بينهما لا يغرى أحد للإهتمام بها، فالأمر يبدوا وكأنه لا يقدم ولا يؤخر.

قد يكون هذا صحيحًا بالنسبة للفرد ولكن بالنسبة للأمة فأعتقد أن الأمر مختلف، لأن دوافع التعامل مع كل منهما مختلفة.

دافع التعامل مع الأثر > سرعة إزالته، أو التخفيف من أضراره، أو التعايش معه فى حالة العجز عن إزالته.

دافع التعامل مع الحدث > ضمان عدم تكراره.

طريقة التعامل مع الأثر > استخدام الوسائل المتاحة لإزالته فورًا.

طريقة التعامل مع الحدث > فحص ماهيته فحصًا متأنيًا، حتى تُعرف أسباب حدوثه، القوة أو القوى التى تقف خلفه من حيث التخطيط والتمويل والتجهيز والتنفيذ، مع تسجيل كل هذا بالصوت والصورة، وبدعمه بكل ما تقع عليه اليد من وثائق، وكل ما يصدر من تقارير للخبراء

obeikan.com

المختصين، وتحليلاتهم مهما تباينت، بل وتناقضت، ثم يتوج كل هذا بالتوصيات اللازمة لمنع تكرار الحدث، وعلى الجهات المختصة تحديد الأفراد أو الجماعات المسئولة عنه لمحاسبتهم وتقديمهم للعدالة.

فترة التعامل مع أثر الحدث > المدى المنظور سواء أكان طويلا أو قصيراً

فترة التعامل مع الحدث > ما لا نهاية فنحن الآن مازلنا نفحص الـDND لقدماء المصرين لنعرف حقيقة ما حدث منذ أكثر من أربعة آلاف عام، ونبحث فى كيفية نشأة الكون وهو حدث من مليارات السنين.

إسرائيل وكل الدول المتقدمة تفرق جيداً بين الحدث وأثره، فانتهاء أثر الحدث لا يعنى عندهم إعتبار الحدث كأن لم يكن، بل يظل موضوعاً كدائرة حمراء على تبة لضرب النار، جاهزة بصفة مستمرة لمن يصوب نحوها بعد عام بعد اثنين بعد عشرة بعد ألف.فأين دوائرنا الحمراء؟

- دائرة ثورة عرابى وما تلاها من احتلال للبلاد.

- دائرة حريق القاهرة.

- دائرة هزيمة ٥٦.

- دائرة نكبة ٦٧.

- دائرة اغتيال القاضى الخازندار.

- دائرة اغتيال أحمد ماهر.

- دائرة اغتيال النقراشى.

- دائرة الاعتداء على السنهورى.

- دائرة سقوط الملكية.

- دائرة حل الأحزاب.

- دائرة اغتيال محمد فرج فوده.

- دائرة الاعتداء على نجيب محفوظ.

- دائرة اغتيال الرئيس السادات.

- دائرة هجوم حماس على السجون المصرية.

- دائرة اتفاق الإخوان مع منظمة حماس وحزب الله على الإيقاع بالشرطة المصرية بل والدولة المصرية ككل.

لاشيئ فى السياسة اسمه "عفى الله عما سلف" أو "إحنا ولاد النهارده" أو أنا المسئول والسماح يا أهل السماح، إنه مصير بلد، مصير أمة، مصير أجيال، ألوريث الوحيد للتراكمات الحضارية إن وجدت، ومن حقها أن تلعن من بددها إن لم يعد لها وجود، هذه جروح لا يسمح فى البلاد المتقدمة باندمالها أبدًا، يجب أن تظل حية بشكل أو بآخر حتى تفرز نصيبها من الحكمة التى تعيش على هديها الأجيال المتلاحقة.

obeikan.com

ولدينا على سبيل المثال الإعتداء على برج التجارة العالمى بنيويورك، لقد حوله الأمريكيون إلى حائط مبكى يبكون على حافته فى نفس الموعد من كل عام، وتحول هذا التصرف إلى طقس من طقوس الوطنية.

المحرقة حدثت من أكثر من سبعين عامًا ومع ذلك التحقيقات مستمرة وملاحقة الفاعلين وأبنائهم وأحفادهم مازالت مستمرة حتى تاريخه.

الجدار العازل الذى قرر شارون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق إقامته ليفصل بين إسرائيل والفلسطينيين ليس إلا ثمرة من ثمار الاستغراق فى دراسة الحدث، وإعمال العقل حتى والخيال فى إيجاد الحلول التى تمنع تكراره، وبالفعل لم نعد نسمع عن عمليات انتحارية تحدث داخل إسرائيل.

وهناك حرب ٧٣ التى خصصت لها إسرائيل لجنة أجرانت لدراستها دراسة جيدة، وهذه هى الجهة المعلن عنها أما بقية الجهات الأخرى التى تناولت دراسة هذه الحرب، فلا نعرف عنها شيئًا، وليس هناك أدنى شك أن الـ (bloodless war) التى تواصل إسرائيل شنها علينا منذ انتهاء حرب ٧٣ هى أيضًا ثمرة الدراسات الجادة والمستميتة لاستقطار الوسائل التى توقف إهدار الدم اليهودى فى الحروب التقليدية، فهى تعلم أن رصيد الدم اليهودى محدد برقم قطعى

نحــن والتاريــخ

إذا كان المؤرخون يقولون بشيئ من التردد وأحيانا بنوع من الغندرة أو (الفزلكة) الثقافية أن التاريخ يعيد نفسه، فإننا كمصريين يمكننا قولها بأعلى درجة من الثقة.

التاريخ بالفعل يعيد نفسه على أرضنا بتبجح لا نظير له فى أى مكان آخر فى العالم، وكأنه يضطهدنا، يزدرينا، يستهين بنا، يسخر منا، يعتبر من يعيشون على هذه الأرض حجارة، أصناماً، لا تتعلم من تجاربها، أو أنه يعتبرنا مواد خام يصنع منها تاريخاً يتراوح بين الكوميديا والتراجيديا والمسخرة. وما هذا إلا نتيجة للاهتمام بإزالة أثر الحدث دون الاهتمام بالحدث نفسه، إزالة آثار العدوان أما عن العدوان نفسه، ماهيته، سببه، القائمين به، من ساعدوا فى ارتكابه، كله يقع تحت مظلة "عفا الله عما سلف" "واحنا اولاد النهارده " ولولا هذه الحالة المرضية لما استجاب الناس لشعار " لا صوت يعلو على صوت المعركة " ألذى رفعه رجال هزيمة يونيو وأشياعهم والمنتفعون بنظامهم، ولما توقفوا أبداً عن المطالبة بسحلهم فى الشوارع، فكما أنه ليس بعد الكفر ذنب كذلك ليس بعد التفريط فى الأمن القومى ذنب، فليس هناك على وجه الأرض جريمة أشنع منها، لأنها لم ترتكب فى حق حسن أو ست أبوها واهو حسن مات وست أبوها ماتت وقضى الأمر والحى أبقى من الميت لا إنها ارتكبت فى حق أمة ستظل حية

وتطول الجريمة الأجيال المتعاقبة، ولولا هذه الحالة المرضية، لما قابل الناس اعتذار عبد الناصر عن الهزيمة بقوله أنه هو المسئول عن حدوثها بهذه الطريقة، وكأنه مسئول عن هزيمة فريقه فى ماتش كورة، والله لو ماتش كورة لرد عليه الجمهور بالطماطم الفاسدة وربما الحجارة، أما بالهتاف له، فهوعرض لمرض عضال.

من يرحم أجيالنا القادمة من المعاناة التى كنا نعانيها فى حصص التاريخ ونحن نسمع الأستاذ يقول بأسى لو لم يحدث كذا لنجح عرابى فى كذا لولم يحدث كذا لنجح محمد على فى كذا لو لم يفعل الإنجليز كذا لظلت مصر والسودان دولة واحدة.

قاتلك الله يا كذا، يامن تقفين فى وجه تقدم بلدنا.

لقد ترسب فى نفسى إحساس شديد بالأسى دفعنى إلى تأليف مسرحيتى " اقعد وانت تفهم " حيث ناديت بتكوين ميلشيات من الشباب تقف فى وجه التاريخ حتى لا يعيد نفسه على أرضنا بهذه الوقاحة أو السفالة.

هذه الحالة التى أعتبرها حالة مرضية ألقت بظلالها على طريقتنا فى التعامل مع الأحداث الدولية.

حدث مثل تفكك الاتحاد السوفيتى وتحول الولايات المتحدة إلى قوة عظمى وحيدة فى العالم هل أخذ ما يستحق من الاهتمام؟

هل جهزنا أنفسنا أو أخذنا وضع الاستعداد للتعامل مع التغيرات التى ترتبت عليه؟

بالطبع لا

لماذا؟

لأنه حدث، صحيح هو حدث ضخم يمكن اعتباره زلزالا كونيًا لكن لم يلفت نظرنا بالقدر اللازم بسبب تهافت وربما انعدام الأثر الفورى والمباشر علينا.

ضرب برج التجارة العالمى وضرب مبنى البنتاجون بأيدى الإسلاميين بصرف النظر إن كان هذا حقًا أم باطلا هل قرأنا هذا الحدث جيدًا؟

هل تحسبنا لما ستفعله الولايات المتحدة فى الأمة العربية ردًا على ذلك؟

هل وضعنا فى الحسبان أن الولايات المتحدة ضربت اليابان بالقنابل الذرية ردًا على حدث مماثل؟

لماذا تعفينا نحن من العقاب؟

وهل يمكن لأى رئيس للولايات المتحدة أن يقف مكتوف اليدين ولا يفعل شيئًا؟

ليس عندهم شيئ اسمه عفا الله عما سلف هذا عندنا نحن فقط.

ما يحدث الآن فى العراق وسوريا وليبيا واليمن وما ينتظر البلاد العربية والإسلامية الأخرى من مصير مشابه، هو نتائج سياسة الانتقام غير المعلنة التى تمارسها الولايات المتحدة، وكيف نقول غير معلنة وقد توعد بوش العرب عقب الحادث، ولكنه عاد وسحب تصريحه لخطورته على السلام الإجتماعى فى الولايات المتحدة، بسبب وجود عدد كبير من الأمريكيين من أصل عربى.

أنا لست من علماء التاريخ، ولا من علماء أى شيئ، أنا مواطن مصرى عادى، ساعات أكتب رواية، وساعات مسرحية، وساعات مقالة، وساعات أقول نكت لا يضحك عليها غيرى.

أقول هذا لأوضح للقارئ، أننى لا أملك من الحيثيات إلا مواطنتى، أو بشكل أدق هويتى المصرية، ولذلك عندما أضرب أمثلة لأثبت بها فكرتى، يكون على القارئ الأكثر علمًا ونضجًا ووعيًا أن يراجعها لنفسه، ويتصل بى لأشاركه الانتفاع بما قد يصل إليه من نقاط خلاف، أو يبحث لنفسه عن أمثلة تكون أكثر صحة ودقة، أو يترك الأمر برمته ويلقى بهذا الكتاب فى سلة المهملات.

فمن أمثلة التاريخ الذى كرر نفسه:

أن عرابى عسكرى وعبد الناصر عسكرى وكلاهما عندما إنتقلت إليه أمانة هذا البلد، كانت معارفه وتجاربه محدودة للغاية، لا تؤهله لحكم

obeikan.com

البلد وتقرير مصيرها، فى نفس الوقت الذى كان فيه خصومهما أكبر سنا، وعلى درجة كبيرة من الخبرة والحنكة السياسية.

ـ عرابى ألذى كان فى الأربعينيات من العمر، كان خصمه فى حلبة الصراع، وليم جلادستون رجل تجاوز الثمانين من العمر، ويحكم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، بالغة الثراء والقوة، ولها أسطول يعمل بوظيفة بلطجى فى كل بحار ومحيطات الكرة الأرضية، أما عنه هو، جلادستون، فكان قد قضى دورتين رئيسًا لوزراء هذا البلد الذى بلغ حد التوحش بعد ولوجه عصر البخار والإنتاج الكبير، ولنا أن نتخيل حجم خبرته وحنكته.

ـ عبد الناصر ابن الخامسة والثلاثين كان خصمه فى الحلبة ديفيد بن جوريون، عبد الناصر من مواليد ١٩١٨ وبن جوريون من مواليد ١٨٨٨ وذا تجربة كبيرة فى السياسة والحرب، أسس دولة من (مفيش) مجرد مجموعة عصابات، حفنة شعارات أعطوها القوة التنفيذية.

ومع ذلك كان يمكن تدارك آثار تلك الفروق لو استعان كل من الزعيمين بما تملكه أمته المصرية من خبرة وحكمة وثقافة، ولو انصاع كل منهما لما تراه نخب تلك الأمة، وما أكثرهم فى عصرهما، ولكن للأسف كل منهما نحَّى تلك الخبرات جانبًا، وركن النخب على الرف، واعتمد على تقديراته الشخصية، وعلى من ألتف حوله ممن لم يكن له دور أو قيمة فى السابق،

obeikan.com

وفى مثل هذه الأوضاع يكون نفاق الزعيم هو العملة الرائجة، وخراب البلد هو النتيجة المؤكدة.

ومن ثم نجد أنفسنا فى كل مرة نغلق صفحة ونفتح صفحة جديدة تمامًا، وفى كل مرة نجد أنفسنا مضطرين لإختراع العجلة كما يقولون، ولا نستخدم ما يزخر به تاريخنا من تجارب، وما وفره لنا من رجال أحياء وأمام أعيننا ولديهم حلول للكثير مما يقف أمامنا من عوائق، فقط لو منحناهم الفرصة، وأظهرنا لهم ما يجب من توقير واحترام، هو فى الواقع ليس لشخوصهم وإنما لخبرتهم وقدراتهم ولهذا البلد أيضًا.

* * *

قد لا يسبب السلوك السياسى السابق توضيحه ضررًا كبيرًا لبلاد أخرى غير مصر، أما مصر بموقعها الجغرافى، فلابد أن يترتب عليه كارثة لأنها حلقة الوصل بين بوابتى قارتين فيهما أكبر مخازن الخامات، مواد، وبشر، ولذلك فأهم ما يلزم أى حاكم هو معرفته الجيدة بالعلاقات الدولية، بالعالم من حوله، بالاتجاهات السياسية والاقتصادية والعلمية والفكرية السائدة والمتوقعة فى المدى القصير، والمتوسط، والطويل، إدراكه الجيد لصراع القوى وتوازناتها، معرفته بالأساس القائم عليه هذا التوازن وإلى متى سيظل هذا الأساس متماسكًا، وفى كل مرة لا يوضع البعد الدولى فى الحسبان تحدث لمصر كارثة فورية، والنماذج كثيرة، بعد فتوحات محمد على تحالف المجتمع الدولى ـ بتحريض من بريطانيا ـ ضد

مصر، وحدث ما حدث، وقد وعى محمد على الدرس جيداً، وهو ما جعله لا يرحب بحفر قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر، ووعاه معه من خلفوه بطريقتهم وفى إطار مفاهيم العصور التى حكموا خلالها، إلى أن جاء عرابى، وغفل عن أهمية قناة السويس للإمبراطورية البريطانية، وغفل عن القوة الرهيبة التى أصبحت تمتلكها بريطانيا، متصوراً أن بريطانيا ١٨٨٢ هى نفسها بريطانيا ١٨٠٧ أيام حملة فريزر، أسقط من حسابه إنجازات ٧٥سنة، لدولة بحيوية وريادة وانطلاقة بريطانيا، المتصدرة لفاعليات النهضة والخروج من القرون الوسطى، والتى أصبحت خلالها القوة العظمى الوحيدة فى العالم، حتى الحرب العالمية الثانية، وكانت الكارثة ممثلة فى الاحتلال البريطانى لمصر (دام٧٢ عامًا)، ثم جاء عبد الناصر، صاحب التصريح الشهير "إذا لم تكفه مياه البحر الأبيض فليشرب من البحر الأحمر" يقصد ليندون جونسون رئيس الولايات المتحدة آنذاك، ولما جمع جونسون مستشاريه ليسألهم عن معنى تلك العبارة، قالوا له يعنى " طق من جنابك " وكان ناصر أيضًا فى بداية الستينيات قد خرج بقواته خارج حدود مصر، وكل هذه خطوط حمراء.

الغفلة بالنسبة لمصر ترف لا تقوى عليه.

أى بلد يمكنها أن تنام وتشخر ما شاءت وعندما تصحو ستجد نفسها بملابسها، إلا مصر، إن نامت فلن تجد نفسها كما كانت عندما تصحو، ستسرق، ستستذف، سيعتدى على عفافها.

اصحوا يا أهل مصر، ليس لمصر بالذات دون كل بلاد العالم أن تغفل للحظة عما يدور حولها، وإلا كان هلاكها.

لابد من تلاحم السياسات الداخلية والخارجية، والمحافظة على جدلية العلاقة بينهما، والعمل على تجديد حيويتها حتى لو اضطررنا لاستخدام وصفات بلدى بشرط ألا يكون من بينها حبة البركة.

هذه من الحقائق التى يجب التسليم بها حتى يمكننا مواصلة الحديث معًا، لأن خداع بعضنا البعض (كاتب وقارئ) لعبة قذرة، عانينا ومازلنا نعانى من آثارها.

* * *

ثورة عرابى ـ إن اعتبرناها ثورة وليست انقلابًا ـ أدت إلى احتلال بريطانيا لمصر، وثورة يوليو ـ إن اعتبرناها ثورة وليست انقلابًا ـ أدت إلى احتلال إسرائيل سيناء، وتمخضت عن تداعيات مرعبة مازلنا نعانى منها حتى تاريخ كتابة هذه السطور، كلا الثورتين المذكورتين الكارثيتين

أدتا إلى انتكاس مشروع النهضة المصرى وتوقفه.

ثورة عرابى وما ترتب عليها من احتلال حدثت فى أعقاب تأجج حضارى قاده الخديوى إسماعيل ومعه نخبة من المثقفين المصريين الواعدين، وانقلاب يوليو حدث عقب تأجج وطنى ثقافى إعلامى فنى أدبى، وأيضًا عند ذروة وصل لها الخط البيانى لحرية الفكر والتعبير

والممارسة الديمقراطية لنظام ليبرالى صاعد، وكلا الثورتين قامتا عند نقطة الذروة التى وصلت لها مصرمن حيث نهضتها، سواء فى نهاية عصر إسماعيل، أو عصر فاروق، ولو تركنا الخط البيانى للنهضتين ليتحركا بحريتيهما بافتراض عدم قيام الثورتين، لكان هناك كلام آخر تمامًا، ولربما رأينا يابانًا أخرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

* * *

للقارئ بالطبع مطلق الحرية فى اعتبار هذا مثلا لإعادة التاريخ لنفسه أو لا، فالمخزن عامر بالمُخزيات، ويمكن أن يختار من الحادثات ما يشاء.

ـ فى حرب ٥٦ ضربت الطائرات على الأرض، فى ٦٧ حدث الشيئ نفسه ومن العدو نفسه، وبالطريقة نفسها، أى وهى على الأرض، وفى وجود قائد القوات الجوية والقائد العام للقوات المسلحة والقائد الأعلى للقوات المسلحة أنفسهم بلا تغيير ولا تبديل.

إذا لم تكن هذه فضيحة فماذا تكون الفضيحة، أو إذا لم تكن هذه مهزلة فماذا تكون المهزلة؟

الأمثلة كثيرة وعديدة بحيث لو اعتبرنا هذا حدثًا عارضًا ـ وهو لم يكن كذلك ـ سيصعب إعتبارغيره كذلك.

ـ فى ١٩٤٨ دخلنا حربًا ونحن غير مستعدين لها باعتراف محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر، الذى وافق على دخول الحرب وقتها

نتيجة ضغوط الإخوان المسلمين، وضغوط الشارع على الملك فاروق، بل والأكثر كنا دولة تحت الإحتلال بما يعنى أننا لا نملك قرارنا بالقدر اللازم، فقد كنا نعمل تحت مظلة معاهدة ١٩٣٦، وهيمنة بريطانيًا على علاقات مصر الخارجية، وعلى جيشها، والأدهى والأمر أن توريد السلاح إلى بلاد الشرق الأوسط كان محظورًا بموجب قرار صادر من الأمم المتحدة، فكيف تدخل حربًا دون مصدر لتوريد السلاح والزخيرة؟[1].

ـ فى ١٩٥٦ دخلنا حربًا أداؤنا السياسى والعسكرى فيها يدل على انعدام خبرة قادة الثورة.

ـ وفى ٦٧ دخلنا أيضًا حربًا غير مستعدين لها فهناك وثيقة تصرخ محذرة من الدخول فى حرب مع إسرائيل بسبب حالة الجيش المصرى غير الملائمة لدخول حرب مع إسرائيل ومع ذلك قام عبد الناصر بإغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية وهو ما سيرد تفصيليًا فيما بعد.

---

(١) لجأت مصر إلى شراء أسلحة من مخلفات الحرب الأهلية الأسبانية كانت الذخيرة مشبعة بالرطوبة نتيجة لسوء التخزين ففسدت، وحولها صحفى شاب هو إحسان عبد القدوس إلى ما أسماه فضيحة الأسلحة الفاسدة واتهم الملك فاروق بشرائها متعمدًا ليحصل من ورائها على مكاسب ضخمة وحمله مسئولية هزيمة الجيش المصرى فى حرب ١٩٤٨ وهو ما اتضح زيفه .

ثـورة ٢٥ ينايـر

ثورة ٢٥ يناير ثورة يمكن اعتبارها من قبيل الخيال العلمى، أبطالها أتصور أنه أتت بهم أطباق طائرة، والدليل أنهم هبطوا بجوار النيل " ميدان التحرير " وهو ما يرى من الفضاء يشق قلب الصحراء الشاسعة.

شباب كالورد مليئ بالأمل والحب والطموح، محب للحياة، هتف، وغنى، ورقص لها، وأصر على أن يحياها مالكًا لحريته صانعًا لمستقبله بنفسه وبإرادته.

تساءل بينه وبين نفسه وعلى مدى سنوات عمره التى لم تخرج عن مدى العشرينات.

مالذى يقف فى طريقى لأصنع حياة لا تقل فى رقيها عن حياة كل شباب العالم المتقدم؟

ويكون الجواب

من يسد الطريق على طموحاتك وابداعك هم حكام فاسدون.

أقسم ألا يترك الساحة حتى يغادروا، ووقف جيش بلاده إلى جواره، وتبنى أهدافه المشروعة، وكما أنهم شباب من الخيال العلمى تحققت نتائج هى الأخرى من الخيال العلمى، وسيقت الزمرة الفاسدة إلى السجون فى انتظار المحاكمة.

obeikan.com

الغريب أن هذه الثورة حصلت فوراً على الفولمارك، تخرجت فى نفس اليوم، وهذه هى الإشكالية أو المباغتة أو (الحوسة)

كاذب أى شخص من أبناء جيلى ـ تحددت معالمه فى الفصل السابق ـ يدعى أنه ذهب إلى ميدان التحرير ليشارك فى الثورة، لقد ذهب، وهو لا يحمل غير سؤال واحد يريد إجابته.

من هؤلاء؟

ما هو شكلهم؟

كيف فعلوها؟

نحن فقط الذين نعرف حقيقة الحِمْل، حقيقة المخاطر، حقيقة المحنة، التى كانت تعيشها بلدنا، ونعرف أسبابها، ونعرف علاجها، ولكننا لانستطيع فعل شيئ بسبب القمع الأمنى والقمع الإعلامى اللذين إن كانا يتصيدانا كآحاد ويمارسان التنكيل الفورى بطلائعنا واستمر ذلك على مدى الستين عاماً الماضية.

كلما تذكرت أن من قام بهذه الثورة هو إبنى ألذى فى العشرينات، وأن من حصل على الجائزة هو إبنى الذى كنت أجره جراً ليسمع أى حديث فى السياسة وعن السياسة، ألذى لم أشاهده مرة يفتح على الأخبار أى أخبار، أشعر بالرعب، وأحس أكثر بالمسئولية، ويذهب النوم من عينى، وكان ما توقعته وكنت أحسب حسابه، وهو سرقة جماعة الإخوان وأعوانها من

السلفين للثورة، وهذا سبب آخر يضاف للأسباب الأخرى التى تفرض علينا وبإلحاح أن نسارع بالتعرف على نظام الحكم التى قامت ثورة يناير لإسقاطه.

■■■

obeikan.com